# الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عصر الشيخ محمد بن عمر الهواري (القرنين 8- 9 هـ/ 14-15م).

د. فوزية لزغم

جامعة ابن خلدون – تيارت-

إنَّ دراسة أية شخصية تتطلب دراسة شاملة للعصر الذي عاشت فيه، وذلك لتأثر الفرد بوسطه اجتماعيا وسياسيا وثقافيا، ولا شك في أنَّ العلماء يتأثرون بالأحوال الثقافية لعصرهم أكثر من تأثرهم بأي مجال آخر، ولهذا خصصت هذه الدراسة للحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عصر الشيخ محمد بن عمر الهواري، أي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14-15م). ومن أبرز ملامح الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط آنذاك تمركز النشاط العلمي بثلاثة حواضر علمية هي: تلمسان، وبجاية وقسنطينة، بالإضافة إلى سيادة المذهب المالكي، وانتشار التصوف.

**الحواضر العلمية بالمغرب الأوسط:**

لم يكن المغرب الأوسط تحت سلطة سياسية واحدة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14-15م)، بحيث كان الجزء الأكبر من المنطقة الغربية منه تابعا للدولة الزيانية[1] وعاصمتها مدينة تلمسان، في حين كان الجزء الشرقي منه تابعا للدولة الحفصية[2]، أمَّا المنطقة الوسطى فلم تكن خاضعة لأية سلطة سياسية، حتى وإن خضعت تارة للزيانيين وتارة أخرى للحفصيين، فإنَّ هاتين الدولتين سرعان ما كانت تفقد سيطرتها عليها، ومنذ أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م كانت مستقلة تماما عن كليهما.

أمَّا من الناحية الثقافية فقد شهدت بعض مدن المغرب الأوسط نشاطا ثقافيا وعلميا مُهِّما خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ومن هذه المدن هي: تلمسان، قسنطينة، بجاية، وهران، الجزائر، عنابة، مازونة، بسكرة[3]، وذلك من خلال مؤسساتها الدينية والتعليمية وهي: الكتاتيب حيث يحفظ الأطفال القرآن الكريم، ويتلقون مبادئ العلوم[4]، بالإضافة إلى المساجد والمدارس التي تؤدي تعليما من المستوى المتوسط والثانوي، وحتى التعليم من المستوى العالي -بتعبير عصرنا- إلى جانب الزوايا التي أخذ بعضها يقوم بمهمة التعليم منذ القرن الثامن الهجري.

وقد توفرت كل من تلمسان، بجاية وقسنطينة على أكبر عدد من المؤسسات الدينية والتعليمية، وكثر بها العلماء وطلبة العلم، وأقبل علماؤها على التدريس والتأليف، وهذا ما أدى إلى انتعاش العلوم بها، ولذلك استحقت أن توصف بأنها حواضر علمية وثقافية، إلا أنَّ المادة العلمية المتوفرة تعطينا صورة واضحة عن المؤسسات الثقافية بتلمسان في الفترة المدروسة لأنها كانت حاضرة الدولة، فكثرت التآليف الخاصة بها ك"بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" ليحي بن خلدون، و"نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان" لمحمد التنسي، و"زهر البستان في دولة بني زيان" لمؤلف غير معروف، أمَّا بجاية وقسنطينة فإن المادة العلمية الخاصة بهما قليلة جدا.

**الحركة العلمية بتلمسان:**

احتلت مدينة تلمسان خلال العهد الزياني مكانة رائدة في المجال الثقافي بين حواضر المغرب الإسلامي، وتجلى ذلك في كثرة مؤسساتها التعليمية، بالإضافة إلى كثرة علمائها وضخامة إنتاجهم الفكري، وترجع تلك المكانة إلى النزعة الثقافية التي تميز بها بعض سلاطين وأمراء بني زيان، الذين كانوا يعتنون بالعلوم والآداب والفنون، وفتحوا أبوابهم للعلماء والأدباء من مختلف الحواضر المغربية والأقطار الإسلامية، ولا سيما من العدوة الأندلسية[(5)]، وفي هذه الفترة كانت المنافسة على أشدها بين سلاطين المغرب الإسلامي لاستقطاب كبار الكتاب والفقهاء والأدباء، وإدراجهم في مجالسهم العلمية وفي الدواوين.

ومما لا شك فيه أن تشبع عدد من سلاطين وأمراء بني زيان بالعلم والمعرفة كان الدافع الرئيسي لرعايتهم المستمرة للعلم ورجاله، ومن الأمراء العلماء: الأمير الشيخ الفقيه عبد الله بن عثمان بن يغمراسن بن زيان المعروف بأبي حفص حفيد السلطان، والشيخ الفقيه أبي سليمان داوود علي "كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم".[(6)]

وكان السلاطين الذين تداولوا على الحكم خلال القرن الثامن الهجري (14م) أكثر اهتماما بالعلم والعلماء، مثل السلطان الأديب الشاعر أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ) مجدد الدولة الزيانية الذي عني بالعلوم والأدب[(7)]، وتألق كشاعر مُفوَّه، وناثر ممتاز، فقد ألف كتابا سمَّاه " واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وهو الكتاب الذي صنفه لابنه وولي عهده أبي تاشفين[(8)]، وهو عبارة عن نصائح في السياسة والأخلاق. كما عرف هذا السلطان بعنايته بالعلماء وحبه للأدباء والشعراء،

وقد كان له مجالس خاصة يحضرها كبار العلماء وفحول الشعراء، كما ساهم في تأسيس مكتبة عمومية بتلمسان، وجلب لها مختلف الكتب، وبنى مدرسة.[9]

ومن بين السلاطين الزيانيين الأكثر اهتماما بالعلم السلطان أبو زيان محمد الثاني (796هـ-801هـ)، الذي ألف كتابا نحى فيه منحى أهل التصوف، سمَّاه كتاب" الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة"، وشجع على التأليف ونسخ الكتب[10]، واقتنائها، وهو الآخر أسس مكتبة بالجامع الكبير بتلمسان.[11]

ومن مظاهر اعتناء السلاطين الزيانيين بالعلم والعلماء، تأسيسهم للعديد من المدارس، وتشير المصادر التي أرخت للزيانيين إلى وجود ستة مدارس بتلمسان تحظى برعاية السلطة،" شيد بعضها ملوك تلمسان، وبعضها الآخر ملوك فاس" المرينيين، وهذه المدارس- مرتبة حسب تاريخ إنشائها- هي: مدرسة أولاد الإمام، والمدرسة التاشفينية، ومدرسة أبو مدين شعيب بالعباد، ومدرسة سيد الحلوي، والمدرسة اليعقوبية، ومدرسة الحسن بن مخلوف.

ورغم تدهور الحركة العلمية ببلاد المغرب في مطلع القرن العاشر الهجري (16م) إلا أن المؤسسات التعليمية بتلمسان سيما مدارسها كانت لا تزال تقوم بنشاطها التعليمي، وذلك ما يؤكده الحسن الوزان بقوله:" توجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صينة، لها أئمة وخطباء، وخمس مدارس حسنة، جيدة البناء، مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية "، كما كان الفقهاء والمتعلمين متواجدين بها بكثرة، وذلك ما عبر عنه الحسن الوزان بقوله توجد بالمدينة:" كثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد، سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة"، رغم تقلص الموارد المالية لهذه المدارس، ولذلك نستشفه من وصف الوزان لطلبتها بقوله بأنَّ:" الطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم".[12]

وهذه المدارس هي مدارس رسمية تابعة للدولة، التي تتولَّى الإشراف عليها بالتمويل وتعيين المدرسين، ومعظمهم من المالكية، وقد خصصت السلطة رواتب للأساتذة ولكل العاملين بالمدرسة، كما خصصت إعانات للطلبة، وزودت هذه المدارس بمكتبات.[13]

تعد **مدرسة أولاد الإمام** أقدم مدارس تلمسان نشأة، وقد سميت بهذا الاسم نسبة للشيخين: أبو زيد عبد الرحمن (ت 743هـ)،وأخاه أبو موسى عيسى(ت 749هـ)[14] ، وهما ولدا محمد بن عبد الله بن الإمام، خرجوا من بلدتهم برشك القريبة من تنس، وتنقلا معا بين عدة بلدان،

إلى أن استقر بهما المقام بتلمسان، ولما استولى السلطان المريني أبي حسن على تلمسان رفع من منزلتهما[15]، ولما استعاد السلطان أبو حمو موسى الأول تلمسان قربهما منه، وبنى لهما مدرسة سنة 710هـ/1310م، عرفت هذه المدرسة باسمهما مدرسة أولاد الإمام[16]، وهي أول مدرسة تعليمية بالمغرب الأوسط، كما بنى لكل واحد منهما منزلا، وخصهما بالفتوى والشورى[17]، وبعد وفاة أبي حمو كانت لهما نفس المكانة عند ابنه أبي تاشفين من بعده، واستمرت المدرسة تؤدي رسالتها التعليمية والتربوية حتى القرن العاشر الهجري حسب إشارة لصاحب البستان.[18]

وثاني مدرسة أنشئت بتلمسان[19] هي **المدرسة التاشفينية**، التي تقع بإزاء الجامع الأعظم، أنشأها السلطان الزياني أبو تاشفين الأول (718-737هـ)، وكانت تعرف أيضا بالمدرسة الجديدة، للتفريق بينها وبين مدرسة أولاد الإمام الأقدم منها، وصفها التنسي ب:" المدرسة الجليلة، العديمة النظير"[20] .تداول كبار العلماء على التدريس بها كالشيخ المشدالي، وأبي محمد عبد الله السلاوي، وأبو عبد الله محمد بن محمد المقري، وسعيد العقباني.[21]

ولما تمكن المرينيون من الاستيلاء على تلمسان سنة 737هـ/1336م، أمر السلطان المريني أبو الحسن المريني ببناء مسجد قرب ضريح الشيخ أبو مدين بالعباد سنة 739هـ/ 1338م، وفي سنة 747هـ/1347م أمر ببناء مدرسة قرب المسجد، عرفت ب**مدرسة أبو مدين شعيب**، وبمدرسة العباد، ومن أشهر الشخصيات التي انتصبت للتدريس بها عبد الرحمن بن خلدون، الذي درَّس بها سنة 746هـ[22]، وصفها الحسن الوزان بكونها:" مدرسة جميلة جدا".[23]

كما أنشأ المرينيون مدرسة أخرى بتلمسان هي **مدرسة سيدي الحلوي**، التي تقع قرب ضريح الشيخ الصوفي أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي[24]، أنشأها السلطان أبو فارس عنان المريني، وكان قد أنشأ قبلها مسجدا، هو الآخر معروف بمسجد سيدي الحلوي، ثم أنشأ بالقرب منه زاوية ومدرسة، وشرع في إنجاز المسجد سنة 754هـ.[25]

وبعودة تلمسان لسيادة الزيانيين واصلوا مشروعهم التعليمي بإقامة المدارس، فأنشأ السلطان المثقف أبو حمو موسى الثاني **المدرسة اليعقوبية**، أنشأها خصيصا للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف[26]، وشرع في بناءها سنة 763هـ/ 1362م، وهي السنة التي توفي فيها والده، ونظرا لوجود ضريح والده أبي يعقوب بها، وعميه اللذين توفيا قبله، حملت المدرسة اسم والده.[27] وعرفت أيضا بمدرسة سيدي إبراهيم المصمودي الذي دفن بها سنة 805هـ/ 1402م، وتناوب على

التدريس بها كبار العلماء أهمهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني الذي أنشئت لأجله.[28]

وآخر مدارس تلمسان نشأة **مدرسة الحسن بن مخلوف أبركان**[29]، التيأنشأها السلطان أبو العباس أحمد المعروف بالعاقل (834-866هـ) للشيخ ابن مخلوف الذي تحمل اسمه، وقد كانت للسلطان أحمد "عناية عظيمة بالولي الزاهد...السيد أبو علي الحسن بن مخلوف، فكان يكثر من زيارته، ويقتبس من إشارته، ومدار أكثر أموره عليه، وبنى بزاويته المدرسة الجديدة، وأوقف عليها أوقافا جليلة".[30]

كما وجد بمدينة تلمسان الزيانية عدد كبير من المساجد، وهي تقرب من ستين مسجدا[31]، ساهمت هي الأخرى في انتعاش الحركة العلمية بها، ذلك أن عددا منها يؤدي وظيفة التعليم إلى جانب وظائفه الدينية، أهمها الجامعين العظيمين العريقين: جامع تاجررت، وجامع أجادير، اللذين أنشآ قبل الزيانيين إلا أن سلاطين بني زيان اعتنوا بهما، وكان كبار العلماء التلمسانيين والوافدين عليها يعقدون بهما حلقات دروس من المستوى الثانوي والعالي.

أنشئ **المسجد الجامع بأجادير**قبل استيلاء الأدارسة على تلمسان سنة 174هـ/790م، فقام الأدارسة بترميمه، كما حظي بعناية الزيانيين فقام يغمراسن بترميمه، وبناء مؤذنته،أما **المسجد الأعظم بتاجرارت،** فهو من أهم مساجد المرابطين، تم بناؤه بأمر من يوسف بن تاشفين عام 473هـ/ 1080م، وأعاد بناءه الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، وأدخل عليه مسحة فنية فأصبح تحفة معمارية رائعة، وأضاف إليه يغمراسن بن زيان، جزئه الشمالي، أشار إليه العبدري في رحلته بقوله:" جامع عجيب مليح متسع".

أمّا الزوايا فقد ازداد عددها بتلمسان خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، بالتوازي مع انتشار التصوف بها، وكانت بعض هذه الزوايا تقوم بدور التعليم إلى جانب وظائفها الأخرى كإيواء وإطعام عابري السبيل، واستقبال المريدين، ومن زوايا تلمسان: زاوية أبي يعقوب التي أنشأها السلطان أبي حمو على ضريح والده، وزاوية سيدي الحلوي، التي أنشأها السلطان المريني أبو عنان، وزاوية سيدي بومدين بالعباد، بالإضافة إلى زاوية أبي عبد الله أحد كبار الأعلام المشاهير.[32]

ولا شك في أن الزوايا التي جمع أصحابها بين العلم والتصوف هي الأكثر إفادة للعلم والمتعلمين من غيرها من الزوايا، كزاوية الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وزاوية الشيخ الحسن بن مخلوف، والذي كان يعقد بها أحيانا بعض الحلقات العلمية.

وبما أنَّ **الكتب** وسيلة لا يستغني عنها المعلم والمتعلم عني بعض السلاطين الزيانيين بإنشاء مكتبات، وإلحاقها بالمساجد والمدارس، نذكر منها مكتبة مدرسة أولاد الإمام، ومكتبة أبو حمو موسى الثاني التي أنشأها بالمسجد، ومكتبة السلطان أبو زيان محمد الثاني بالجامع الأعظم.

وفي ظل هذا الرقي الحضاري والازدهار العلمي الذي عرفته تلمسان الزيانية لا بد أن يكثر بها عدد العلماء، وطلبة العلم، بل ويتوارث العلم بين أبناء الأسرة الواحدة، إذ ظهرت بها عدد من البيوتات والأسر العلمية، التي أنجبت العديد من العلماء والأدباء والفقهاء، الذي لعبوا دورا بالغ الأهمية في تنشيط الحركة العلمية بتلمسان خاصة وبالمغرب الإسلامي عامة. وأبرز البيوتات العلمية بتلمسان: بيت المرازقة، بيت العقباني، بيت التنسي، بيت أولاد الإمام، بيت المقري، بيت الشريف التلمساني، بيت ابن هدية، بيت ابن عبد النور، بيت النجار، بيت ابن زاغو، والسراغنة وغيرهم.

**الحركة العلمية بقسنطينة وبجاية:**

كان السلطان الحفصي يعين ولاة قسنطينة وبجاية من بين أبناءه، وكانت المدينتين تتمتعان باستقلال ذاتي في تسيير شؤونهما، إذ لم يكن للسلطة المركزية في تونس إلا السيادة الاسمية عليهما(33)، وذلك ما سجله برانشفيك في النص الموالي:" في تلك الربوع الغربية مع عواصمها الإقليمية: بجاية وقسنطينة وعنابة ... ظهرت بصورة أوضح في عهد بعض الأمراء الحفصيين النزعة إلى الانفصال، وفيما بعد التبعية والاستقلال التام، ظهرت مرات متكررة، أشكال مختلفة من التدرج نحو الاستقلالية، وقد كانت النزعة الإقليمية المحلية متطابقة مع طموح الأمراء، فكانت تشجع ذلك الطموح وتسعى لإثارته". (34)

أمَّا من الناحية الثقافية فتركزت الحركة العلمية بشرق المغرب الأوسط في حاضرتي بجاية وقسنطينة، اللتين استفادتا من الحركة العلمية التي شهدتها مدينة تونس عاصمة الدولة الحفصية، والتي كانت من أبرز الحواضر العلمية ببلاد المغرب الإسلامي، وأهم المؤسسات الدينية والعلمية بها جامع الزيتونة، الذي كانت تقام به حلقات دروس من المستوى العالي من طرف كبار العلماء، وقد

كثرت المدارس بتونس، وأظهر السلاطين الحفصيين عناية بها، من بينها المدرسة الشماعية، والمدرسة التوفيقية، والمدرسة العنقية.

ولكن الباحث يصطدم بقلة المادة العلمية المتعلقة بالمؤسسات الثقافية والتعليمية ببجاية وقسنطينة اللتين كانتا عاصمتين إقليميتين، وحاضرتين علميتين، إلا الإشارات المتناثرة في ثنايا الكتب، كالإشارات الواردة في كتاب "وصف إفريقيا " للحسن الوزان الذي يعود إلى مطلع العاشر الهجري (16م)، إنَّ وصف الوزان للمدينتين بالتحضر، وباتساع العمران، له دلالته في الجانب الحضاري، إذ لا تخف العلاقة الوطيدة بين العلم وازدهار العمران على قاعدة ابن خلدون، إذ يزدهر العلم حيث يكثر العمران.

وملاحظات الحسن الوزان في غاية الأهمية في هذا الجانب، ويتبين ذلك من خلال مقارنة وصفه لبجاية وقسنطينة بوصفه لمدن أخرى أقل أهمية منها، فهو لا يصف تلك المدن والقرى بالتحضر، ولا يصف كثرة عمرانها، ونادرا ما يشير إلى مدرسة بها، مما يعني أهمية بجاية وقسنطينة من الناحية الحضارية والعلمية.

وفيما يخص مدينة قسنطينة فقد كان أغلب سكانها من الحضر، واستطاعت العديد من عائلاتها أن تُحصل ثروات كبيرة، سيما العائلات القريبة من السلطة، أو تلك التي تشتغل بالتجارة، وبالتالي الجاه والمكانة الاجتماعية المرموقة، وبذلك تكونت بيوتات قسنطينية الكبرى، والتي كانت متنافسة فيما بينها، حول النفوذ والامتيازات في المدينة[35]، ولا شك أن الحياة الثقافية استفادت من هذا التنافس لإقبال العديد من بيوتاتها على تأسيس مدارس وزوايا خاصة بها. ومن بين البيوتات التي كان لها مدرسة، بيت الفكون الذي كانت لهم مدرسة، بحيث ذكر عبد الكريم الفكون صاحب كتاب "منشور الهداية" أنَّ هذه المدرسة من تأسيس أحد أجداده الأولين وهو محمد شقرون بن حليمة، وهو جد جده الشيخ عبد الكريم الفكون المتوفى سنة 988هـ/ 1580م.[36]

ومن أشهر البيوتات العلمية بقسنطينة: بيت ابن قنفد، بيت الفكون، بيت ابن باديس، وبيت الكماد وغيرها. ومن الأكثر بيوتاتها العلمية ارتباطا بالسلطة الحفصية بيت ابن قنفد، وبيت بن الكماد القسنطيني، وهو من بيوتات قسنطينة بارزة، والذي تولى عدد من أبناءه وظائف مهمة في الدولة الحفصية كنظارة الأشغال بحاضرة الدولة تونس، والكتابة لدى ولاة قسنطينة الحفصيين، وبالحاضرة تونس، ووظيفة الكتابة من المناصب الرفيعة في الدولة.[37]

وقد ذكر الحسن الوزان المستوى المادي الجيد لسكان قسنطينة، وأشار إلى مؤسساتها الدينية والتعليمية بقوله:" لها موارد كثيرة، وهي متحضرة جدا، ومليئة بالدور الجميلة، والبناءات المحترمة كالجامع الكبير، والمدرستين، والزوايا الثلاث أو الأربع". (38)

ومن أهم الجوامع بقسنطينة جامع القصبة، وهو الجامع الذي احتكرت الخطابة به أسرة ابن قنفد لمدة طويلة من الزمن، حيث عين به الشيخ علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفد (ت733هـ) خطيبا مدة تقرب من ستين سنة، ثم تولاها من بعده ابنه والد صاحب "الوفيات" الشيخ حسن بن علي بن حسن (ت 750هـ(39))، ثم انتقلت لابنه ابنه أبو العباس أحمد بن حسن بن علي (ت810هـ/1407م)، (40) الذي اشتهر بابن الخطيب لتولي كل من جده ووالده الخطابة لمدة طويلة. ومما لا شك في أن هؤلاء الخطباء كانوا يعقدون حلقات علمية بهذا الجامع، سيما وأنهم من كبار العلماء بالمدينة.

وهنا لا بد أن نشير إلى عامل آخر ساهم في انتعاش الحركة العلمية بقسنطينة، وهو تردد القوافل التجارية بينها وبين تونس، بحيث كان العلماء وطلبة العلم يسافرون مع هذه القوافل طلبا للأمان في الطريق، وهذا ما عزز التواصل الثقافي بين المنطقتين، ومَّكن علماء قسنطينة من الاستفادة من ازدهار الحركة العلمية بمدينة تونس، وتشير المصادر إلى تولى بعض علماء قسنطينة مناصب علمية ودينية ذات أهمية بحاضرة الدولة تونس.

وبالنسبة لمدينةبجاية، فإن المادة العلمية التي تتناول الحركة العلمية بها خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين قليلة جدا، رغم أهمية المدينة تاريخيا وحضاريا، بحيث كانت عاصمة للحماديين، وعاشت مرحلة من التحضر والانفتاح الثقافي والعلمي، وظلت لما يقرب قرن من الزمن تغدق على المنطقة بعطائها المعرفي والحضاري، واحتفظت بمكانتها الثقافية حتى بعد زوال حكم الحماديين، ويكف أن نشير إلى عدد العلماء الذين عاشوا ببجاية خلال القرن السابع الهجري، والذين ترجم لهم الغبريني في كتابه "عنوان الدراية"، ولا شك في أنَّ استقرار الأندلسيين بالمدينة أعطى دفعا قويا ومددا آخر لتواصل عطائها المعرفي.

وظلت الحركة العلمية مستمرة ببجاية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ولا بد أنها أخذت تنزل تدريجيا عن درجتها العلمية خلال هذين القرنين، كما هو شأن العديد من حواضر العالم الإسلامي، ومع ذلك بقيت المدينة محافظة على جزء من مآثرها العلمية، وذلك ما نستشفه

من الوصف الذي وصفها به الوزان خلال مطلع القرن العاشر الهجري، بحيث وصف سكانها بالغنى، وهذه عبارته:" وكان أهل بجاية على قدر عظيم من الغنى"، ووصف عمرانها بما يدل على تحضرها بقوله:" ودورها كلها جميلة، وفيها جوامع كافية، ومدارس يكثر فيها الطلبة، وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة زوايا المتصوفة، وحمامات، وفنادق، ومارستانات، وكلها صروح مشيدة حسنة البناء". (41)

إن ذكره لغنى أهلها وجمال عمرانها، بالإضافة إلى تعداده لمؤسساتها التعليمية يعني أن المدنية كانت لا تزال تحتفظ ببعض مآثرها العلمية، ولا شك أنها كانت أقوى خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، إذ يوجد العلم حيث يكثر العمران، وللمال أهميته بالنسبة للعلم، كبقية مناح الحياة.

وأهم المؤسسات الدينية والتعليمية ببجاية جامعها الأعظم، الذي كانت تعقد فيه حلقات الدروس العلمية، ووجد ببجاية خلال الفترة موضوع الدراسة عدد من العلماء المشاهير، الذين انتصبوا للتدريس بها، ولهذا كانت بجاية مقصد طلاب العلم من جهات مختلفة، فتخرج على علمائها كبار العلماء المتصوفة بالمغرب الأوسط أشهرهم الشيخين: محمد بن عمر الهواري (ت843هـ/1440م)، وعبد الرحمن بن محمد الثعالبي (ت875هـ/1470م).

وردَ الشيخ محمد بن عمر الهواري بجاية في صغره أو "بعد صومه بسنة" - على حد تعبير ابن صعد التلمساني- فظل يدرس بها لأعوام، قرأ خلالها على أعلامها كالشيخ عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي (ت786هـ/1384م)، والشيخ أحمد بن إدريس البجائي (توفي بعد 784هـ/ 1383م)(42)، وكلام الشيخ محمد الهواري في منظوماته مليء بالثناء على أهل بجاية، وذكر محاسنهم، كما "صرح في كثير من كلامه أنه لقي بها جماعة من العلماء أهل الصدق والورع أجازوه في جميع العلوم"، وكان يقول عن أهل بجاية:" ما لقيت مثلهم في غيرها من البلاد"، وفي نظمه المسمى ب"التسهيل"- والذي لم يلتزم فيه اللغة العربية الفصحى- قوله(43):" لو وصفت لك ما رأيت في بجاية، وهي - بلد الورع والعلم وترابي حقيقيا".

ودرس الشيخ عبد الرحمن بن محمد الثعالبي هو الآخر ببجاية سنة 802هـ/1399م، وأشار إلى ذلك بقوله:" دخلت بجاية عام اثنتين وثمانمائة فلقيت بها الأئمة المقتدى بهم في العلم والدين والورع، أصحاب الفقيه الزاهد الورع عبد الرحمن الوغليسي، وأصحاب الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس متوافرون يومئذ، أصحاب ورع، ووقوف مع الحد، لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم، وسلك

أتباعهم مسلكهم كشيخنا الإمام الحافظ أبي الحسن علي بن عثمان المكلاتي، وشيخنا الولي الفقيه المحقق أبي الربيع سليمان بن الحسن، وأبي الحسن علي بن محمد البليلتي، وعلي بن موسى، والإمام العلامة أبي العباس النقاوسي، حضرت مجالسهم وعمدتي على الأولين".[44]

ووجد ببجاية عدد من البيوتات والأسر العلمية التي ساهمت في تنشيط الحركة الفكرية بها، ومن أبرز هذه البيوتات وأكثرها تأثيرا في الحركة العلمية بالمدينة: **بيت المشذالي**، ومن أبرز علمائه الشيخ بلقاسم بن محمد بن عبد الصمد الزواوي المشذالي، الذي انتصب للتدريس بالمدينة، وذكر أحمد التنبكتي بأنه "كان موصوفا بحفظ المذهب، وهو في بجاية كالبرزلي بتونس"[45]، وابنه العلامة محمد بن أبي القاسم المشذالي (ت 866هـ) هو الآخر من علماء بجاية الأعلام، تولى الخطابة بالجامع الأعظم ببجاية، وتصدى للفتوى والتدريس بالمدينة نفسها، وكان ذو وجاهة عند صاحب تونس.[46]

ومن أبنائه العلماء اثنين هما: العلامة أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشذالي (ت 865هـ)، الذي وصف بالذكاء، والتفوق في العديد من العلوم، ولذلك وصف السيوطي بأنه:" أحد أذكياء العالم "، ووصفه القلصادي ب:" الإمام الفذ في وقته، ذي العلوم الفائقة، والمعاني الرائقة "، وكما كان أخاه محمد بن محمد بن أبي القاسم (ت 859هـ) هو الآخر من فقهاء المدينة.[47]

ومن مشاهير بيوتات بجاية **بيت ابن القاضي الغُبريني**، الذي اشتهر أبناؤه بالتداول على القضاء ببجاية، ومؤسس هذا البيت هو القاضي أبو العباس أحمد بن أحمد الغُبريني (ت 704هـ/ 1304م[48]) صاحب كتاب " عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية"، هو من كبار فقهاء المالكية في وقته، تصفه المصادر بما يدل على مكانته، بحيث وصفه ابن خلدون في تاريخه ب:"كبير بجاية، وصاحب شوارها".

وتذكر المصادر اثنان من أبنائه العلماء هما: الشيخ أبو القاسم أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني التونسي (ت بعد 770هـ/1368م)، الذي تولى الفتيا بتونس[49]، وثانيهما هو الشيخ أبو سعيد أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني (ت 775هـ/ 1373م) وهو محدث من كبار فقهاء المالكية [50].
ومن رجال هذا البيت الفقيه أبو محمد بن أحمد بن القاضي الغربيني، الذي شارك في المعارك التي خاضها البجائيون في الدفاع عن مدينتهم أثناء الاحتلال الاسباني لها سنة 1510م.[51]

كانت هذه الحواضر العلمية الثلاث توجه الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط خلال عصر الشيخ محمد بن عمر الهواري، وقد اتسمت الثقافة بهذا العصر بكونها ثقافة دينية، هيمنت عليها سمتين بارزتين: عودة السيادة للمذهب المالكي تدريجيا بعد زوال دولة الموحدين، وانتشار التصوف.

**سيادة المذهب المالكي:**

عندما تمكن الموحدون من إقامة دولتهم، وبسط نفوذهم على بلاد المغرب الإسلامي وجدوا الأغلبية الساحقة من السكان يعتنقون المذهب السني المالكي، فلم يقدموا على اضطهادهم من أجل نشر مذهبهم كما فعل الفاطميون من قبل، وقد كان المذهب الموحدي الذي جاء به المهدي بن تومرت يتعارض مع المذهب السني في نقطتين هامتين هما: الاعتقاد في عصمة الإمام المهدي بن تومرت، ورفض الموحدين كل ما يتعلق بالفروع، إذ ادَّعوا إعادة كتابة الفقه انطلاقا من مصادر الشريعة الكتاب والسنة، وعملوا على إهمال الدراسات الفقهية السابقة، وإلغاء جميع المذاهب، ومنها المذهب المالكي.(52) وتسامح الموحدون مع التأويل العقلي، والاجتهاد في أصول الدين والتوحيد، ولكنهم لم يتسامحوا في أمور الفروع، ومن ثمة عزلوا عنهم فقهاء المالكية، وكاد يُقضى على دراسات الفروع في بلاد المغرب.(53)

إلا أن مناهضتهم للمذهب المالكي لم تكتس صبغة حادة في البلاد إلا في أحيان قليلة، من ذلك تعرض فقهاء بجاية لبعض الضغوطات في عهد الخليفة المنصور بمناسبة الإصلاح الذي قام به لتطبيق المذهب الموحدي، بكل صرامة، ولكن الأمور تغيرت إلى الأحسن منذ عهد خليفته الناصر.(54)

ووجد خلال العهد الموحدي فريقان، فريق يمثله أنصار المذهب الموحدي وتسانده الدولة، وفريق يمثله المعارضون المتشبثون بالفروع(55)، وبعد زوال دولة الموحدين، وقيام الدول الثلاث على أنقاضها تقلص المذهب الموحدي، وتحرر العلماء المالكية من الضغوطات، فنادوا بإحياء السنة، والعناية بالمسائل الفقهية والفروع.

لقد نشطت حركة أهل السنة في النصف الأول من القرن السابع الهجري (13م)، لا سيما بعد أن تبرأ الخليفة المأمون الموحدي من العقيدة التومرتية سنة 626هـ/ 1228م، عند ذلك بدأ المذهب المالكي يسترجع مكانته ودوره الريادي في ربوع المغرب. وقد ساعد على هذا الاتجاه نزوح عدد كبير من فقهاء المالكية من الأندلس بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية، واستقرارهم

بالحواضر المغربية الكبرى، فقربهم السلاطين الزيانيون والحفصيون، وعينوهم في وظائف الإفتاء والقضاء والتدريس والخطابة والإمامة، إلى جانب علماء المغرب الذين لم يتوقفوا عن الدفاع عن مذهب الإمام مالك، ومقاومة عقيدة بن تومرت.(56)

وبعد استقلال الحفصيين بحكم تونس اعتبروا أنفسهم ورثة الموحدين الشرعيين، وحاول حكامهم الأوائل الإبقاء على هذا التوجه الديني، ورغم التخفيفات التي فرضها التطور على نظريتهم الموحدية، فإنَّهم لم يتخلوا تماما عن الانتساب الروحي للمذهب، وتشهد مسكوكات إفريقية الحفصية على الوفاء النظري للمذهب الموحدي، كما تشهد المدارس الناشئة بتونس عاصمة البلاد في أول الأمر على رغبة الحفصيين في مواصلة المذهب الموحدي ونشره.(57)

إنَّ بقاء المذهب الموحدي غريبا عن بلاد إفريقية المتشبعة بالمذهب المالكي، لا ينف تقلص تأثير المذهب المالكي، لتعرضه للمقاومة ولقلة الدعم من طرف السلطة، وللإقصاء بصورة تكاد تكون تامة من التعليم، حتى وإن بقي "موطأ" الإمام مالك يحظى بتعلق المسلمين باعتباره من كتب الأحاديث النبوية، فإنَّ بقية كتب الفروع التابعة للمذهب المالكي لم تكن تدرس، ولم يظهر انتعاش المذهب المالكي بالدولة الحفصية إلا خلال القرن السابع الهجري تحت تأثير عدة علماء ذوي تأثير قوي، تسببوا في بعث نهضة بعيدة الأثر، أبرزهم ثلاثة علماء، درسوا بالمشرق، اثنان بإفريقية هما: أبو القاسم بن أبي بكر اليمني المعروف بابن زيتون المولود سنة 621هـ، والثاني هو العالم المغربي شعيب الهسكوري (ت 664هـ) الذي أقام بالقيروان ثم بتونس، وقام بعمل مماثل في بجاية وبنفس الفاعلية معاصرهما الشيخ أبو علي ناصر الدين منصور المشدالي المولود سنة 632هـ/ 1235م(58)، وذلك الإصلاح الذي ستظهر نتائجه فيما بعد.

ومنذ أوائل القرن الثامن هجري، وحتى قبل تخلي السلطان ابن اللحياني عن مظاهر المذهب الموحدي أصبح الفقهاء السنيون يسيطرون بدون منازع على كافة المؤسسات الدينية الرسمية، فكانوا يدرسون المذهب المالكي في المدارس، ويحتلون مناصب القضاء والإفتاء، وهكذا حقق المذهب المالكي الانتصار النهائي على المذهب الموحدي بإفريقية، وانحازت له السلطة الحفصية علانية، وساندت الفقهاء المالكيين في كامل أراضيها.(59)

وخلال القرن الثامن هجري أصبحت تونس على غرار العاصمتين الأخريتين فاس وتلمسان من أنشط مراكز المذهب المالكي ببلاد المغرب، وأصبح الفقهاء المالكية بها وببقية أراضي الدولة

الحفصية أكثر علما وعددا، وظهرت شخصيات رفعت مشعل السنة عاليا، أبرزهم بتونس الشيخ المفتي أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي (ت 803هـ/ 1401م) إمام وخطيب الجامع الأعظم.

وشهدت بجاية نهضة مماثلة، فقد تكوّن فيها خلال القرن السابع الكثير من الفقهاء على يد علمائها، وأبرزهم الشيخ أبو علي ناصر الدين منصور المشدالي، وبعد وفاته تألقت المدينة خلال القرن الثامن الهجري، بوجود عالم ذائع الصيت كان لآرائه أثر بعيد، وهو الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي (ت786هـ/ 1384م)[60]، وقد كان هؤلاء العلماء مجتهدين داخل المذهب المالكي.

إنَّ زوال المذهب الموحدي أو "الفلسفة الموحدية" كما يسميها أبو القاسم سعد الله أفسح المجال أمام الفقهاء المالكية الذين عادوا إلى الاعتناء بالفروع الفقهية، ونشأت مدارس متعددة همها العناية بالفقه المالكي خاصة.[61]

أمَّا الكيانات السياسية القائمة في الناحية الغربية من بلاد المغرب فاختلف موقفهم عن الحفصيين، بحيث عمل المرينيون والزيانيون على إحياء المذهب المالكي، ورد الاعتبار لعلمائه الذين تعرضوا للمضايقات والابتلاءات زمن الموحدين، وكان سلاطين تلمسان الزيانيين مالكيين، ولهذا عملوا على التمكين للمذهب المالكي، فأنشأوا المدارس بتلمسان من أجل نشره، وطرح بدعة الموحدين ومذهبهم، وهكذا شيدت المدرسة لتكون أداة للسلطة لتكوين الأطر والعلماء المختصين في المذهب المالكي مع الاهتمام بتدريس مختلف العلوم، وقد كانت مدارس تلمسان كلها حكومية تشرف عليها الدولة بالتمويل وتعيين الأساتذة، وكان علماؤها كلهم مالكية. سجلت هذه المدارس انتصارا كبيرا للسنة المالكية، وكان سلاطين بني زيان يؤكدون على تدريس الفقه وأصوله المستمدة من أفكار المذهب المالكي وآرائه.[62]

ومن دلائل انتصار المذهب المالكي أن علماء المغرب الأوسط في هذه الفترة كانوا جلهم مالكيين، كما كانت جل فتاواهم وفق المذهب المالكي، بالإضافة إلى أنَّ الفقه المالكي كان من أهم العلوم الشرعية التي تُدرَّس بالمساجد والمدارس سيما مدارس تلمسان، التي لعبت دورا مهما في نشر المذهب المالكي، في الوقت الذي بدأت فيه حركة الصوفية تتزايد ببلاد المغرب، وتتسع رقعتها في المدن والبوادي.[63]

**انتشار التصوف:**

شهد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين انتشارا واسعا للحركة الصوفية، ويعود ظهور هذه الحركة إلى عهد الموحدين الذي عاش فيه كبار المتصوفة وأبرزهم على الإطلاق: الشيخ أبو مدين شعيب (ت 594هـ/1197هـ)، والشيخ عبد السلام بن مشيش (625هـ/1228م)، والشيخ أبو الحسن الشاذلي (ت 656هـ/1258م)، وتغلغل التصوف في المجتمع، بفضل هؤلاء المتصوفة وتلامذتهم.[64]

ومن أسباب ترسيخ التيار الصوفي ببلاد المغرب خلال الفترة المدروسة عناية السلاطين بالمتصوفة، كالزبيانيين الذين اعتنوا بالمتصوفة لمكانتهم ونفوذهم في المجتمع، وتذكر المصادر أن يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية كان يكثر من زيارة الولي الصالح محمد بن عيسى بداره بأغادير[65]، كما كان السلطان أبو العباس أحمد العاقل يظهر اهتماما بالغا بالولي الصالح أبي علي الحسن بن مخلوف، الذي كان يكثر من زيارته. [66]

وازداد التصوف انتشارا خلال القرن التاسع الهجري لأسباب عدة أهمها: الخطر الصليبي، بحيث تمكن الإسبان من احتلال الأندلس، والقضاء على دولة الإسلام بها سنة 898هـ/ 1492م، بالإضافة قيامهم إلى جانب البرتغاليين بمهاجمة سواحل المغرب، واحتلال بعض ثغوره، وفي هذه الفترة ضعفت دول المغرب، وعجزت عن الدفاع عن أراضيها، ولمّا غاب دور الدولة مالت الرعية للمتصوفة، فكانوا يحكمونهم في قضاياهم الدينية والدنيوية.[67]

وبرز بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين نخبة كبيرة من المتصوفة الذين تعرف بهم بهم كتب التراجم، وتركز على مناقبهم وكراماتهم، وزهدهم، كـ" البستان" لابن مريم، و" نيل الابتهاج" لأحمد بابا التنبكتي، " النجم الثاقب" للشيخ أبي عبد الله بن صعد التلمساني. واشتهرت كل مدينة بزهادها وعلمائها المتصوفة، فاشتهرت مدينة الجزائر بعالمها الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري (ت 884هـ)، كما اشتهرت مدينة وهران بالعالمين المتصوفين: أبو عبد الله محمد بن عمر الهواري، وتلميذه الشيخ إبراهيم التازي (ت 866هـ/1462م)، واشتهرت تلمسان بمتصوفتها من العلماء أمثال: محمد بن يوسف السنوسي(ت895هـ/1489م)، والحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (ت857هـ/1453م)، وأحمد بن الحسن الغماري التلمساني(ت874هـ).[68]

إنَّ كثرة العلماء المتصوفة يؤكد هيمنة التصوف على الحياة العلمية والفكرية، بحيث غلب الزهد والفكر الصوفي على جل علماء الفترة المدروسة، ووجد التصوف مكانه في حلقات الدروس، بحيث كان بعض العلماء يُدَرِّسون بعض الكتب الصوفية في حلقاتهم العلمية، بل وغلب التصوف حتى على مؤلفات هذه الفترة مثل مؤلفات الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، ومؤلفات الشيخ محمد بن يوسف السنوسي، اللذان يعتبران من أكبر زهاد وعلماء القرن التاسع، وقد جمع كل منهما بين الإنتاج العلمي والسلوك الصوفي، وكان لهما تأثير كبير على المعاصرين لهما وعلى اللاحقين، ورغم شهرة كليهما ومكانته فإن كل منهما يحث على العزلة والهروب من الدنيا وعلومها والاهتمام بعلوم الآخرة.[69]

ومن أبرز مظاهر التصوف بالمغرب الأوسط وجود العديد من زوايا الصوفية بمدنه وبواديه، وقد بدأ ظهور الزاوية ببلاد المغرب في القرن السادس الهجري؛ أي في عهد الموحدين، بمبادرة من السلطة أو من رجال التصوف، وكانت الزاوية التي أنشأتها السلطة مكانا لإطعام وإيواء المحتاجين، وعابري السبيل، أما زاويا رجال التصوف فكانت مكانا لإيواء وإطعام الصالحين والمريدين، بالإضافة إلى قيامها رجالها بالوعظ، وتعليم الصبيان.[70]

وقد ازداد عدد الزوايا بالمغرب الأوسط خلال الفترة موضوع الدراسة، بعضها من تأسيس السلاطين، كزاوية الحلوي بتلمسان التي أنشأها السلطان أبو عنان، والزاوية التي أسسها أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده أبي يعقوب، ومن أبرز الزوايا بالمغرب الأوسط: زاوية الشيخ الحسن بن مخلوف أبركان، وزاوية الشيخ محمد بن يوسف السنوسي بتلمسان، وزاوية الشيخ عبد الرحمن الثعالبي بمدينة الجزائر، وزاوية الشيخ محمد الهواري بوهران، والزاوية الملارية بقسنطينة.

ظلَّ التعليم الموجه لطلبة العلم قليلا بالزوايا إلى غاية القرن التاسع الهجري، إذ بدأ التعليم من المستوى المتوسط والثانوي –بتعبير اليوم– يزدهر فيها بسبب انتشار نفوذ الزوايا وهيمنة شيوخها على عقول الناس، وكثر نشاطها في البوادي، فأصبحت تساهم بقسط كبير في تضييق الفوارق التعليمية والثقافية بين سكان الريف وسكان المدينة، وقد استطاعت أن تطبع التعليم بطابع التصوف، وتجمع بين تدريس علم الظاهر وعلم الباطن.[71]

ومن دلائل انتشار التصوف، ازدياد عدد المتصوفة من العلماء ومن غير العلماء، لأن بعض المتصوفة لم يبلغوا شأوا كبيرا في العلم، وإنما اشتهروا بالزهد والورع، واعتقد الناس فيهم الولاية

والصلاح. ومع نهاية القرن التاسع الهجري بدأ تيار التصوف يعرف منعطفا خطيرا نتيجة اختلاط رجال لا علاقة لهم بالصلاح بالمتصوفة، فساهموا في تحريف التصوف الحق المبني على أساس الزهد والتقشف والعمل بالعلم، والابتعاد عن الدنيا وأهلها، والتصوف الذي تزعمه العلماء هو الذي استفادت منه الحركة الفكرية بالمغرب الأوسط[72]، وأُضفي على التصوف في هذا القرن المبالغة في الاعتقاد في الشيخ، وابتداع الحضرة والأوراد وغيرها، والالتفاف حول زاوية ذلك الشيخ أو ضريحه.[73]

**زاويتا الشيخين محمد بن عمر الهواري وإبراهيم التازي بوهران:**

ومن الزوايا التي جمعت بين التصوف ونشر العلم زاوية الشيخ محمد بن عمر الهواري، وزاوية تلميذه الشيخ إبراهيم التازي بوهران، فقد كان الشيخ محمد الهواري-حسب ابن صعد-" من العلماء الزاهدين، والفقهاء المتصوفين"، وكان مع " الدرجة العظيمة التي حصلت له في سائر العلوم، مداوما على طلب العلم مكثرا من تعليمه وتعلمه"، ومنذ أن استقر بوهران "جلس بها لنشر العلم وبثه"، ولهذا كان "طلاب العلم يقصدونه من الآفاق"، وقال ابن صعد في موضع آخر :"كان (محمد الهواري) مع ذلك لا يخلي مجلسه من مفاوضة علمية، ومحاضرة أدبية ومذاكرة صوفية ".[74]

اكتسبت زاوية الشيخ محمد بن عمر الهواري بوهران مكانة مهمة في حياته، فكان العلماء وعامة الناس يزورونه بها، بل وأصبحت "ملاذا للمظلومين "-حسب رواية ابن صعد-، وأضفى عليها مجتمع تلك الفترة من القدسية والحرمة حتى كان الجُناة يحتمون بها، وذلك ما تبينه رواية ابن صعد التالية:"... فمن يتعرض لهضم زاويته، وإضافة الجناة اللائذين بحرمه، فقد شاهدنا كثيرا من ولاة وهران وعمالها الذين سبقت لهم الشقاوة فحملتهم النفس الأمارة بالسوء على التهاون بحرم الزاوية، وإخراج من استجار بحرمها فينتقم الله من فاعل ذلك في الوقت".

أمّا تلميذه الشيخ إبراهيم التازي، الذي لازمه عشرة أعوام "محفوفا بالتجلة والإكرام"، فقد انفصل عنه، وأسس لنفسه زاوية بوهران، خصصها لتلقين الأوراد، وبث العلم، وظل وفيا لشيخه حتى أنه كان "يستفتح مجالس إقرائه بقراءة كتب الشيخ سيدي محمد الهواري"، وكانت زاوية الشيخ التازي تضم مدرسة، وذلك ما يؤكده نص ابن صعد الموالي:" ولما بنى سيدي إبراهيم زاويته الكريمة جعل في مدرستها المعدة لطلبة العلم..."[75]

وقد وصف ابن صعد زاوية التازي بقوله:" الزاوية النبيهة، المتعددة الأبواب والمساجد في الفخامة والاحتفال، ومدارسها المشتملة الميضاة الأنيقة الدارة، والحمام الذي ما شوهد مثله في البلاد، والخزائن المملوءة بالكتب العلمية، وآلات الجهاد"، وقد كانت الصدقات تأتي إلى زاويته من الآفاق، " وكان من عادته إذ كمل الموضع بالبناء عجّل بالشهادة عليه أنه حبس على الزاوية حتى إنَّه لم يترك لوارثه من الأرض شبرا، ولا ذخر له فضة ولا تبرا". (76)

كانت هذه بعض ملامح الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، والتي ساهمت في الاتجاه الثقافي والعلمي والديني للشيخ محمد بن عمر الهواري.

**الهوامش:**

1- يعود أصل بنو عبد الواد الزيانيين إلى قبيلة زناتة البربرية، قامت دولتهم بغرب المغرب الأوسط سنة 633هـ/1235م، وزالت على يد العثمانيين حكام الجزائر الجدد سنة 962هـ/ 1554م.

2- يعود أصل الحفصيين إلى أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني أحد رجال المهدي بن تومرت العشرة الذين قامت على أيديهم الدولة الموحدية، ولهذا ظلت أسرته تتمتع بمكانة مهمة لدى الموحدين، وفي الربع الأول من القرن 7هـ ولي أبو زكريا يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص ولاية إفريقية، ولكنه أعلن استقلاله عن السلطة المركزية، ونصب نفسه أميرا في حدود سنة 625هـ/ 1227م، فنشأت على يديه الدولة الحفصية، التي ظلت قائمة إلى سنة 981هـ/ 1574م تاريخ تأسيس إيالة تونس عثمانية.

3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1998، ج1، ص 45.

4- ابن مريم محمد بن محمد المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح: عبد القادر بوباية، سيدي بلعباس (الجزائر)، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 2011، ص ص 415- 416.

5- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، الجزائر، موفم للنشر والتوزيع، 2002، ج2، ص ص 317- .320

6- أبو عبد الله محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، الدار البيضاء (المملكة المغربية): مطبعة النجاح الجديدة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، (ط1)، 2008، ص .153

7 - بوزياني الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص .34

8- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود بوعياد. الجزائر، موفم للنشر، 2011، ص 161.

9- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 323.

10- محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 211.

11- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 323.

12- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد لخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط2)، 1983م، ج2، ص ص 19- 21.

13- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 32.

14- للمزيد حول أولا الإمام، بالنسبة للشيخ عبد الرحمن ينظر ترجمته: ابن مريم المديوني، المصدر السابق، ص ص 222- 229؛ أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وضع هوامشه: طلاب من كلية الدعوة، بإشراف: عبد الحميد عبد الله الهرامة. طرابلس (ليبيا): منشورات كلية الدعوة الإسلامية، (ط1)، 1989، الجزءان 1- 2. ص ص 245- 248. وينظر ترجمة أخاه عيسى، عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، تح: محمد بن تاويت الطنجي، بيروت، دار الكتب العلمية، (ط1)، 2004، ص 78؛ التنبكتي، المصدر السابق، ص ص 291- 297.

15- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص 90.

16- المصدر نفسه، ص 77؛ التنسي، المصدر السابق، ص 139.

17- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص ص 321- 322.

18- صالح بن قربة وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر. الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، ص 141.

19- فاطمة الزهراء عمارة، المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنين 8 -9 هـ/ 14- 15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2010، ص 37.

20- التنسي، المصدر السابق، ص 141.

21- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، مواضع متفرقة مثل ص 55؛ صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص 149.

22- فاطمة عمارة، المرجع السابق، ص ص 40- 42.

23- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 24.

24- أبو عبد الله الشوذي الحلوي (ت بعد 737هـ/ 1337م)، هو من العلماء الذين جمعوا بين العلم والزهد، انتقل من اشبيلية موطنه الأصلي واستقر بتلمسان، فكان يدرس بها، واشتهر بالزهد، وبعد وفاته أصبح قبره من المزارات الشهيرة بتلمسان. ينظر: عبد المنعم القاسمي، أعلام التصوف في الجزائر (منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى). بوسعادة (ولاية المسيلة- الجزائر)، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، (ط1)، 2004، ص ص 58- 59.

25- فاطمة عمارة، المرجع السابق، ص 45.

26- هو محمد بن أحمد بن علي بن يحي بن علي الشريف التلمساني (ت 771هـ) من كبار علماء المالكية، ويذهب أحمد بابا التنبكتي إلى أنه:" انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب"، وأنه بلغ درجة الاجتهاد، حظي بتقدير السلطان أبو حمو الزياني، الذي بنى له مدرسة وزوجه ابنته. ينظر: أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص ص 432- 433؛ محمد بن مريم، المصدر السابق، ص ص 281- 305.

27- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تح: بوزياني الدراجي، الجزائر، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، 2007. ج2، ص ص 227، 228؛ محمد التنسي، المصدر السابق، ص 179.

28- صالح بن قربة وآخرون، المرجع السابق، ص ص 152- 153.

29- الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي الراشدي المعروف بالحسن أبركان (ت 857هـ) هو كبار العلماء الذين جمعوا بين علم الشريعة وعلم الحقيقة، تصدى للتدريس بتلمسان، وهو أحد المشايخ الأربعة الذين ترجم لهم ابن صعد التلمساني في كتابه "روضة النسرين". ينظر ترجمته: محمد بن صعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تح: يحي بوعزيز، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009، ص ص 115- 135.؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص ص 150- 177.

30- محمد التنسي، المصدر السابق، ص 248.

31- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 45.

32- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق،ج1، ص ص 146- 149.

33-يوسف بنوجيت، قلعة بني عباس إبان القرن السادس عشر للميلاد، تر: سامية سعيد عمار، الجزائر، دار النشر دحلب، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2009، ص 33.

34- روبير برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، تر: حمادي الساحلي. بيروت، دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 198، ج2، ص ص 111- 112.

35- يورد ابن قنفد – وهو أحد أبناء بيوتات قسنطينة- في كتابه " الفارسية" حادثة تؤكد المنافسة بين بيوتات قسنطينة. ينظر: ابن قنفد القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح: محمد الشاذلي النيفر، وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968، ص ص 148- 149.

36- عبد الكريم بن محمد الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله. بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1)، 1987، ص 51.

37- لمزيد الاطلاع حول بيوتات قسنطينة ينظر: فوزية لزغم، البيوتات العلمية بقسنطينة وبجاية في ظل الحفصيين، ضمن مجلة عصور الجديدة، الصادرة عن "مخبر تاريخ الجزائر"، بجامعة وهران، ع: 14- 15، سنة 2014. ص ص 197- 218.

38- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 56.

39- أبو العباس أحمد الخطيب بن قنفد، أنس الفقير وعز الحقير، تح: محمد الفاسي، وأدولف فور، الرباط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، منشورات: المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965، ص 47.

40- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 109؛ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، نشر باعتناء: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (ط2)، 1982، ص ص 973- 974.

41- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 50.

42- ينظر ترجمة عبد الرحمن الوغليسي، أحمد بابا، المصدر السابق، ص 248، وترجمة أحمد بن إدريس البجائي، أحمد بابا، المصدر السابق، ص ص 99- 100؛ النعيمي، أعلام التصوف، ص 67.

43- ابن صعد التلمساني، المصدر السابق، ص 40.

44- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 258.

45-التنبكتي، المصدر السابق، ص 150.

46- أحمد بابا التنبكتي، المصدر نفسه، ص ص 538- 539؛ أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، فونتانا، ج1، ص ص 105- 106.

47- أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص ص 541-542.

48- في أغلب المصادر هو أحمد بن أحمد، (الديباج المذهب؛ أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص 104 في ترجمة ولديه)، وفي بعضها أحمد بن محمد كوفيات ابن قنفد (ص 338).

49- التنبكتي، المصدر السابق، ص 104؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 1971، ص 249.

50- التنبكتي، المصدر نفسه، ص 104؛ نويهض، المرجع نفسه، ص ص 249- 250.

51- فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 212.

52- روبير برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص 299، ص 311.

53- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 51.

54- روبير برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص 300.

55- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 51.

56- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص ص 325- 326.

57- كانت المدارس التي شيدها بتونس أبو زكريا الأول مجدد مذهب المهدي، مخصصة حسب الظاهر لتدريس الحديث المحبب لأنصار المذهب الموحدي. ينظر: روبير برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص 301.

58- ينظر ترجمته: الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، (ط2)، 1979.ص 229.

59- روبير برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص ص 302- 304.

60- المرجع نفسه، ج2، ص ص 306- 308.

61- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 46..

62- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 326.

63- المرجع نفسه، ج2، ص 349.

64- محمد بوشقيف، تطور العلوم ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين (14- 15م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2011. ص ص 33 -.34

65- ابن مريم، المصدر السابق، ص .224

66- التنسي، المصدر السابق، ص .247

67- محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص .39

68- ترجم التنبكتي في "نيل الابتهاج" لهؤلاء الفقهاء المتصوفة: أحمد بن عبد الله الجزائري (ص 127)، وأبو عبد الله محمد بن عمر الهواري (ص 516)، وإبراهيم التازي (ص 59)،ومحمد بن يوسف السنوسي (ص 570)، والحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (ص 162)، وأحمد بن الحسن الغماري التلمساني (ص 121).

69- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص 49.

70- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص .351

71- المرجع السابق، ج2، ص .351

72- محمد بوشقيف، المرجع السابق، ص .39

73- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص .48

74- ابن صعد، المصدر السابق، مواضع متفرقة مثلا الصفحات: 43- 44؛ 82- 84؛ 113.

75- المصدر نفسه، ص ص 146- 158.

76- المصدر نفسه، ص ص 149- 155.